محاضرة: المواعظ
فضيلة الشيخ: سلمان أبن فهد العوده

....

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى
وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
اللهم لا تعذب لسانا يخبر عنك، ولا قلبا يشتاق إليك ولا عينا تنظر في ملكوتك ولا أذنا تستمع إلى كلامك.
المواعظ أيها الأخوة هو الدرس الرابع والستون من سلسلة الدروس العلمية العامة، ينعقد في هذه الليلة، ليلة الاثنين السابع والعشرين من شهر الله المحرم من سنة ألف وأربعمائة وثلاث عشرة للهجرة.

يا منزل الآيات والفرقان.................بيني وبينك حرمة القرآن
أشرح به صدري لمعرفة الهدى............واعصم به قلبي من الشيطان
يسر به أمري وأقض مآربي..............وأجر به جسدي من النيران
واحطط به وزري وأخلص نيتي..........واشدد به أزري وأصلح شأني
واكشف به ضري وحقق توبتي..........واربح به بيعي بلا خسراني
طهر به قلبي وصف سريرتي..............أجمل به ذكري واعل مكاني
واقطع به طمعي وشرف همتي.............كثر به ورعي واحي جناني
أسهر به ليلي وأظم جوارحي............أسبل بفيض دموعها أجفاني
أمزجه يا رب بلحمي مع دمي............واغسل به قلبي من الأضغاني
أنت الذي صورتني وخلقتني..............وهديتني لشرائع الإيمان
أنت الذي علمتني ورحمتني..............وجعلت صدري واعي القرآن
أنت الذي أطعمتني وسقيتني..............من غير كسب يد ولا دكان

وجبرتني وسترتني ونصرتني...............وغمرتني بالفضل والإحسان
أنت الذي آويتني وحبوتني...............وهديتني من حيرة الخذلان
وزرعت لي بين القلوب مودة............والعطف منك برحمة وحنان
ونشرت لي في العالمين محاسنا.............وسترت عن أبصارهم عصياني
وجعلت ذكري في البرية شائعا...........حتى جعلت جميعهم إخواني
والله لو علموا قبيح سريرتي...............لأبى السلام علي من يلقاني
ولأعرضوا عني وملوا صحبتي............ولبؤت بعد كرامة بهوان
لكن سترت معايبي ومثالبي...............وحلمت عن سقطي وعن طغياني
فلك المحامد والمدائح كلها..............بخواطري وجوارحي ولساني
ولقد مننت علي رب بأنعم............مالي بشكر أقلهن يدان

قال الإمام أبن الجوزي رحمه الله تعالى:
(وقد كنت أرجو مقامات الكبار، فذهب العمر وما حصل المقصود.
فوجدت الإمام أبا الوفاء أبن عقيل قد ناح على نفسه نحو ما نحت فأعجبتني نياحته فكتبتها هنا قال لنفسه:
(يا رعناء تعظمين الألفاظ ليقال مناظر، وثمرة هذا يا مناظر كما يقال للمصارع الغارة، ضيعت أعز الأشياء وأنفسها عند العقلاء، وهي أيام العمر حتى شاع لك بين من يموت غدا أسم مناظر، ثم ينسى الذاكر والمذكور إذا درست القبور.
هذا إن تأخر الأمر إلى موتك، بل ربما نشأ شاب أفره منك فموهوا له وصار الاسم له.
والعقلاء عن الله تشاغلوا بما إذ –انطووا- نشرهم وهو العمل بالعلم، والنظر الخالص لنفوسهم. أف لنفسي وقد سطرت عدة مجلدات في فنون العلوم وما عبق بها فضيلة.
إن نوظرت شمخت.
وإن نُصحت تعجرفت.
وإن لاحت الدنيا طارت إليها طيران الرخم وسقطت عليها سقوط الغراب على الجيف، فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة.
توفر في المخالطة عيوبا تبلى ولا تحتشم نظر الحق إليها.

أف والله مني اليوم على وجه الأرض وغدا تحتها، والله إن نتن جسدي بعد ثلاث تحت التراب أقل من نتن خلائقي وأنا بين الأصحاب. ووالله إنني قد أبهرني حلم هذا الكريم عـنـي؛
كيف يسترني وأنا أنتهك ؟ ويجمعني وأنا أتشتت.
وغدا يقال مات الحبر العالم الصالح.
والله لو عرفوني حق معرفتي ما دفنوني.
والله لأنادين على نفس نداء المكشفين معائب الأعداء.
ولأنوحن نوح الثاكلين على الأبناء.
إذ لا نائح ينوح علي هذه المصائب المكتومة، والخلال المغطاة التي قد سترها من خبرها وغطاها من علمها وهو الله.
والله ما أجد لنفسي خلة أستحسن أن أقول متوسلا بها -اللهم أغفر لي كذا بكذا-، والله ما التفت قط إلا أجد منه سبحانه برا يكفيني، ووقاية تحميني مع تسلط الأعداء ولا عرضت حاجة فمددت يدي إلا قضاها. هذا فعله معي وهو رب غني عني.
وهذا فعلي وأنا عبد فقير ولا عذر لي فأقول ما دريت أو سهوت.
والله لقد خلقني خلقا صحيحا سليما، ونور قلبي بالفطنة حتى إن بعض الغائبات المكنونات تنكشف لفهمي.
فوا حسرتاه على عمر انقضى في ما لا يطابق الرضى.
ويا حرماني لمقامات الرجال الفطناء.
يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وشماتة العدو بي.
وا خيبة من أحسن الظن بي إذا شهدت الجوارح علي واخذلاني عند إقامة الحجة، سخر والله من الشيطان وأنا الفطن.
اللهم توبة خالصة من هذه الأقذار ونهضت صادقة لتصفية ما بقي من الأقذار، وقد جاءتك بعد الخمسين وأنا من خلق المتاع.
وأبى العلم إلا أن يأخذ بيدي إلى معدن الكرم، وليس لي وسيلة إلا التأسف والندم.
والله ما عصيتك جاهلا بمقدار نعمتك، ولا ناسيا ما سلف من كرامتك، فأغفر لي سالف فعلي).

هذا كلام إمام جليل وهو الإمام أبو الوفاء أبن عقيل الذي له كتاب الفنون بنحو ثمان مائة مجلد، وكان له مقامات في العلم والعمل والجهاد كثيرة، ولكنه مع ذلك تفطن إلى إسرافه على نفسه وتقصيره في جنب الله عز وجل فناح على نفسه هذه النياحة الباكية التي راءها الإمام أبن الجوزي، الإمام الحبر الفذ الفهم الذي كان يعظ فتنخلع القلوب وتسيل الدموع ويقوم الناس من مجلسه مئات وألوف قد تابوا إلى ربهم جل وعلا وأنابوا فناح على نفسه بنحوها ورأى أنها تطابق ما في قلبه وما في نفسه فيقول:

(وإن لم يكن هذا لعمل من الكبائر ارتكبته لأن لا يظن بي ظان ما لست أهله ولكن لأن عندي أعمالا وتقصيرات لا تليق بمثلي، ولا تنبغي مني وقد أنعم الله تعالى علي بنعمة العلم والفهم والذكاء).

فهو يتوب إلى الله ويستغفره من ذاك.

أيها الأحبة:

تأملت خلق الإنسان فوجدته مركبا من ثلاثة أشياء:

الأول العقل:

وهو غريزة يدرك بها الإنسان الأشياء فيعرف بها الخطأ والصواب، والحق والباطل والصحيح من غيره، وهو يميز الإنسان عن الحيوان، وبه أمتن الله تعالى على العبد، ومع ذلك فإن هذا العقل قد يشطح أحيانا ويتعدى حده إلى ما لا يحل ولا يجوز، فالعقل نعمة أنعم الله تعالى بها على الإنسان.

ومن الأشياء التي قد يشطح العقل إليها مثلا أنه يفكر في ما لا يحل له فيسترسل في النظر في أمور الغيب كالتفكر في ذات الله عز وجل مع أن العبد لا يحيط بالله تعالى علما، قال الله تعالى:

)يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) (طـه:110)

وقال سبحانه**:) وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)**(البقرة 255)

فالعقل عاجز عن إدراك حقيقة أسماء الله تعالى وصفاته أو معرفة كنهها وكنه ذاته. وكما قيل:

العجز عن درك الإدراك إدراك.......والبحث في ذاته كفر وإشراك

ومثله التفكير في أمور الغيبيات التي لا يحيط به الإنسان، بل يضيع العمر فيها في غير طائل وفي غير جدوى، بل هو باب يجر الإنسان إلى الضلال.

ومثله أيضا أن العقل قد ينجر أحيانا إلى الشبهات التي تطرأ عليه، شبهة في أمر الإيمان بالله عز وجل. أو شبهة في أمر القضاء والقدر وكيف كلفنا الله تعالى العمل والعبادة مع أنه قضاء علينا وقدر وكتب:

)إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمر:49)

فيظل العقل غاصا بهذه الشبهة قلقا فيها ينام عليها ويصح عليها وهي تسير معه حيث سار، فيتعكر الصفاء وتكثر الهموم حتى لا يكاد الإنسان يطمع في الفكاك من هذه الشبهات.

وقد يسترسل العقل أحيانا في مسائل ليس لها أهمية دينية ولا دنيوية، وليس فيها سوى ضياع التفكير ككثير من مباحث الفلاسفة الذين يضيعون الأعمار فيها ثم يكون نهاية أحدهم أن يقول:

نهاية إقدام العقول عقال..................وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا..........وغايات دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من كدنا طول عمرنا..........سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

فهي علوم وأبحاث لا تقرب إلى الله عز وجل، ولا تقرب إلى الجنة ولا تبعد عن النار، ولا تنفع في الدنيا فليست من العلم الذي ينتفع فيه الإنسان في دنياه تيسيرا للسفر مثلا، أو تيسيرا للأنصال أو تيسيرا للعلم أو تيسيرا للعمل أو تيسيرا للعبادة ، لا هذا ولا ذاك، وإنما هي من فضول العلم الذي لا ينفع في دني ولا في دين.

فيحتاج العقل حين إذ إلى وعظ يعالجه ويقمعه ويوقفه عند حده ويقول له قف لا تتعدى هذا الحريم الذي حده الله تعالى لك.، فلا تغتر أيها العقل بقوتك وأنت الصغير، بل اشتغل فيما شرع الله لك وبما تعبدك فيه ودع عنك ما سوى ذلك.

الشيء الثاني الذي ركب منه الإنسان القلب:

وهو مستودع المشاعر والأحاسيس ومستقرها، فهو الذي يحب ويبغض ويلين ويقسو ويصح ويمرض، وهو مستودع المشاعر، فقد يتجه هذا القلب إلى مسلك حسن فيكون فيه الإيمان ومحبة الرحمن، والخشوع للقرآن والإخبات إلى ذكر الله وطاعته والانقياد له، فحين إذ يكون نعما هو.

وقد يسترسل القلب وينحرف إلى شهوة حرام، شهوة في الملبس فيلبس ما حرم الله تعالى عليه حريرا أو إسبالا أو ثوبا مغصوبا أو أبهة أو ثوب شهرة.

أو يأكل ما حرم الله تعالى عليه أو يشرب ما حرم الله تعالى عليه، أو ينكح ما حرم الله تعالى عليه أو يسترسل إلى طلب شهرة يركض ورائها ويعشقها حتى تكون الشهرة هي معبودة على الحقيقة، يتكلم من أجلها ليقال هو فصيح، ويسكت من أجلها ليقال صاحب صمت وفكر وزهد وعبادة.

أو رئاسة يسعى إليها ويشرأب لطلبها، فيبذل في سبيلها الغالي والنفيس ويرتكب في سبيلها ما حرمه الله ودعا إليه إبليس.

أو يكون معبودة المال فمن أجله يحب ويبغض ويقرب ويبعد ويسهر الليالي الطوال ويحب المال من حرام أو من حلال.

فيحتاج القلب حين إذ إلى وعظ يوقفه عند حده ويقمعه عن غيه ليرعوي ويزدجر، فهذا هو العنصر الثاني.

أما الثالث فهو الجسم.

وهذا الجسم بأعضائه وجوارحه وقوته هو مطية ذلول يركبها العقل ويركبها القلب إلى ما يريدان، فإذا اقتنع العقل بشيء حرك إليه الجسم وقال له هلم إلى هذا المكان ففيه مصلحة لي في الدنيا أو في الآخرة.

فيحرك الجسم إلى ما يرى كأن يذهب الإنسان إلى إجراء عملية جراحية يعلم أنها مؤلمة وأن فيها مشقة عليه ولكنه يقتنع بعقله أن فيها مصلحة له، فالقلب يقول أحجم والعقل يقول أقدم.
وكذلك إذا اشتهى القلب شيئا حرك الجسم إلى ما يشتهي ويريد، كأن يقصد الإنسان المحبوبات في هذه الدنيا وهي كثيرة من الملاذ بالنسبة لأهل الدنيا، فهو يركض إلى ما يحب من مآكل أو مطعم أو مشرب أو منكح أو غير ذلك.
ومثله أيضا الإقبال على الطاعات عند أهل الآخرة، فإنك تجد أحدهم وهو يسعى إلى عبادة أو طاعة أو صوم أو ذكر أو طواف أو حج أو عمرة أو جهاد يركض إليها ركضا يخشى أن تفوته مع أنه يعلم أنه ربما كان فيها عطبه، ولكنه قلبه آمن أن هذا الطريق مرضاة لله عز وجل فأقبل عليه وهو يقول:
رضيت في حبك الأيام جائرة.......فعلقم الدهر إن أرضاك كالعذب
ولهذا جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال:

(كتب على أبن آدم حظه من الزنى مدرك ذلك لا محالة ؛
فالعين تزني وزناها النظر.
والأذن تزني وزناها السمع.
واليد تزني وزناها البطش.
والرجل تزني وزناها المشي.
والقلب يتمنى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه.)
فأنت ترى ذلك الآن أن مدار هذه الأشياء كلها على القلب، فإذ تمنى القلب نظرة العين وأصغت الأذن وامتدت اليد ومشت القدم، ثم توقف الأمر على الفرج، فأما من طغى وآثر الحياة
الدنيا فإنه يقبل على شهواته لا يلوي على شيء، ويقول: عجل وتمتع بهذه الشهوات قبل الموت.
أفق وصب الخمر أنعم بها.......واكشف خفايا النفس من حجبها
وروي أوصالي بها قبل ما........يصاغ دن الخمر من تربها
هكذا يقول الفاجر الذي طغى وآثر الحياة الدنيا.
وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإنه وإن استرسل وراء نظرة خائنة أو حركة عابرة أو خطوة غير مدروسة فإنه إذا جد الجد وحزم الأمر ووقف أمام الفاحشة الكبرى تذكر وقوفه بين يدي الله عز وجل وتذكر نظر الله تبارك وتعلى إليه فكف نفسه عن الهوى وأقلع.
ولهذا قال (صلى الله عليه وسلم): (والفرج يصدق ذلك أو يكذبه).
وكما في سنن الترمذي ومستدر ك الحاكم ومستند أحمد وغيرهم وهو حديث صحيح:

(أن الكفل كان رجلا مسرفا على نفسه في المعاصي، فأراد امرأة يوما فتأبت عليه، ثم أصابتها حاجة فجاءت إليه، وقالت له: هلم على أن تعطيني حاجتي، فأعطاها مائة دينار ثم قعد منها مقعد الرجل من امرأته، فارتعدت وبكت.
فقال لها ما يبكيك؟ قالت هذا أمر ما فعلته قط، وإنما فعلته الآن للحاجة.
فأقبل على نفسه يوبخها ويقول، أنا العبد الذي ما ترك معصية إلا ارتكبها لا أبكي وهذه امرأة ما فعلت معصية قط تبكي لله عز وجل، أنا أحق بالخوف منها.
ثم قام من عندها معرضا تائبا إلى الله عز وجل فمات من ساعته، فأصبح مكتوبا على بابه:
إن الله تعالى غفر للكفل).
والقلب يتمنى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه.
إذا العين مطية، والأذن مطية، واليد مطية، والرجل مطية، والجسد كله مطية إلى ما يكون في هذا القلب من الأمنيات والمطالب والمقاصد، وما في هذا العقل من الأفكار والقناعات والآراء.
هذا هو الجسم.
يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته.........أتعبت نفسك في ما فيه خسران
أقبل على النفس فاستكمل فضائلها.......فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

إن قوة الإنسان وإنسانيته وفضله ومكانته ليست بقوة جسمه فالفيل والبعير أقوى منه.
وليست بكثرة أيامه ولياليه وطول عمره فإن النسر والفيل بل والضب أطول عمرا منه.
وليست بشدة بطشه فالأسد والنمر أشد منه بطشا.
وليست بلابسه وبزته وحسن هيئته وجميل مظهره فالطاووس وهو يختال والدراج أحسن لونا وجسما منه، ولا بقوته على النكاح فالعصفور قالوا أقوى منه.
ولا بكثرة الذهب والفضة والأموال فالمعادن والجبال أكثر منه ذهبا وفضة.
لولا العقول لكان أدنى ضيغم.........أدنى إلى شرف من الإنسان

فهكذا عرفت أيها الأخ الكريم فضل العقل وفضل القلب وأن الجسم خادم لهما.

والغريب أن بعض الناس كل همه أن يشبع ويروى وينعم جسمه بجميل الثياب وجميل المناظر، وجميل المطاعم وجميل المشارب، فهو كمن يعلف دابته ثم يتركها مربوطة لا يستخدمها في أمر ينفعها في دنيا ولا في دين.
كان بعض السلف يأكل حلوى فأقبل عليه أحدهم وعاتبه في ذلك، وقال:
تتوسع وتترفه في هذا المآكل ؟ فقال أعلفها حتى أحمل عليها.
يقول أعلف نفسي الآن حتى أحمل عليها فهو يتقوى بالطعام والشراب على ما يقربه إلى رب الأرباب.
أيها الأخوة:
العقل والقلب، والجسم تبعا لهما قابلان للطغيان والانحراف كما أشرت، ومن حكمة الله عز وجل أن خلق الإنسان وابتلاه فجعل أمامه طريق الخير والشر فقال عز وجل:
)إِنَّا خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً) (الانسان:2)
لاحظ هذه الآية **(خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه).** حكمة الخلق.
(فجعلناه سميعا بصيرا)، فالعين ترى والأذن تسمع، فإذا رأت العين أو سمعت الأذن أرسلت إلى القلب وإلى العقل، فتأثر القلب بما يرى وما يسمع، ثم قال سبحانه: **)إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)** (الانسان:3)
من الناس من ينظر فيكون نظره طاعة، ومنهم من يكون نظره معصية.
جعل الله في الكون أمورا متقابلة، فأنت ترى في الدنيا كلها مغريات تحرك القلب إلى المعصية، الصورة الجميلة والصوت العذب والملذة العاجلة التي ينهمك فيها صاحب النظر القصير، كلها من المغريات، ولهذا قال النبي (صلى الله عليه وسلم) في الحديث المتفق عليه: **(حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات)**، وفي لفظ حجبت.
فالدنيا مليئة بالشهوات التي يتخطاها العبد فإذا تخطاها شهوة وقع أمام ناظريه أخرى.
قال بعض السلف: (الكفر في أربعة أشياء؛ في الغضب والشهوة والرغبة والرهبة)، ثم قال:
وقد رأيت منها اثنتين؛ رأيت رجلا غضب فقتل أمه، ورأيت رجلا عشق فتنصر.)
هذا أثر الغضب، وهذا أثر الرغبة في القلب، ومثله الرغبة والشهوة فإنها تجر إلى أشد من ذلك.
قال الله تعالى: **)فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً)** (الانسان:11) .
قال بعض المفسرين بما صبروا عن الشهوات.

إن الشهوة لم تتبرج مثلما تبرجت في هذا العصر فأصبحت ترى في المكتبة:

أعدادا غفيرة من المجلات تتاجر بصورة المرأة الجميلة وهي في عز شبابها وقد قدمت لها الصورة الملونة التي إذا رآها الشاب المراهق افتـتن بها وتأثر فأغلقت عليه منافذ التفكير وغاب العقل وحضر الهوى والشهوة فأصبح الإنسان ينظر ويتملى ثم قد يجره ذلك إلى ما بعده.

الأفلام الخليعة الماجنة التي أصبحت ليس صورة جامدة أمام الإنسان بل صورة متحركة كأنها تحكي الواقع بكل تفاصيله، وهي تقول للإنسان هيت لك، يختارون لها أجمل النساء وفي أبهى الثياب، وفي حركات خليعة تنخلع لها قلوب ضعاف النفوس وقصار النظر، ثم معها الأصوات العذبة المشجية المؤثرة، ومعها الكلمات الهامسة المحركة لساكن الشهوة.

وأصبحت هذه الأشياء في عرف الكثيرين مما لا ينكر.

فأنت إذا قلت فلما خليعا ترامى إلى نظر البعض الأفلام المتعلقة بالرذيلة العارية وتصوروا أن الأفلام المسموحة المباحة قانونا ونظاما ليست داخلة في هذا الباب.

وما أدري أي شيء بقي بعد أن عرض الرجل والمرأة على سرير واحد.

وعرضت المرأة ليس عليها ما يسترها أو يغطيها إلا ما يستر سوءتها فحسب، وربما تلبس ما يزيدها إثارة وحسنا وجملا.

ماذا بقي بعدما أصبح الرجل يتحدث إلى المرأة كما يتحدث الرجل إلى زوجته وهما في المخدع.

فكل ذلك مما سلط على الإنسان لاستثارة كوامنه وليتحقق فيه معنى الابتلاء:
(مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ)، (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) (الملك:2)

وأشد من ذلك البث المباشر الذي تحدثت عنه سابقا وتحدث عنه غيري، وهو الآن يقرع نواقيس الخطر على أبوا المسلمين فيتلفت الناس ويصابون بما يصابون به، فهاهنا نقول لهم:

كل ما يقضيه الله تعالى ويقدره للمؤمنين فهو خير، دع الناس يتمحصون ويتمحظون ويتبين منهم الصادق من الكاذب، والمؤمن من الفاجر، والتقي الورع من المقبل على المعاصي لا ينفك عنها إلا عجزا عنها.

أنظر إلى الجمال الذي ظهر في هذا العصر كما لم يظهر من قبل؛

الرذيلة التي تيسرت زمانا ومكانا حتى أصبحنا نجد الإعلانات عن السفريات والتسهيلات للشباب في الصحف صباح مساء، وهي تدعوهم إلى قضاء أوقات إجازاتهم في أماكن الفساد وفي الفنادق وفي المخيمات والمعسكرات، بل وتتيح لهم في بلادهم ما لم يكن متاحا من قبل، وتعلن لهم التيسير والتسهيل والتخفيض وغيره.

أنظر إلى الأصوات.

أنظر إلى المآكل المحرمة وقد أصبحت في متناول الإنسان في بيته وسوقه المتجر وفي كل مكان.
أنظر المشارب المحرمة، والمناظر المغرية إلى غير ذلك مما تبرجت به الشهوة في هذا العصر كما لم تتبرج من قبل، وأصبحت سهاما موجهة إلى قلوب الناس.
تلك الأشياء كلها تخاطب القلب، وتهز الوجدان وتحاول أن تزلزل وتزعزع الإيمان في القلب.
أما العقل فقد فتحت أمامه أبوب الشبهات، وصارت الدنيا مليئة؛
بالمذاهب الفلسفية والنظريات التي يسمونها أحيانا نظريات علمية.
والفرضيات والاحتمالات الظنية.
والدراسات والبحوث المنمقة بجميع الألفاظ وحسن الترتيب والتبويب وحُسن الاستدلال أحيانا والتي سرقت من الناس طمأنينة إيمانهم وهدوء قلوبهم وسلامة فطرتهم وجعلت الكثيرين منهم في أمر مريج.

وأمام هذا وذاك تحركت العقول إلى الشبهات وتحركت القلوب إلى الشهوات فيتساءل الإنسان:
ماذا يكافئ هذا وذاك ؟
فنقول يكافئها مواعظ الله تعالى لأبن آدم.
فالله تعالى لا يظلم أحدا: **)مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)** (فصلت:46).
فالذي وضع وخلق هذه المغريات، وضع بازائها أسباب الهداية والفلاح وهي كثيرة:
أولها وأعظمها معرفة الله جل وعلا.
فكيف يعصي الله تعالى من عرفه، وهو يعلم أنه مطلع عليه؟
كيف يخالف أمره وهو يتقلب في نعمته ؟
كيف يخالف إلى معصيته وهو يعلم أنه صائر إليه واقف بين يديه؟
فيا عجبا كيف يعصى.......الإله ويجحده الجاحد
وله في كل تحريكة..........وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية........تدل على أنه الواحد
أسمائه تعالى وصفاته وأفعاله، منها ما يوجب الخوف منه فهو الجبار المنتقم القوي العزيز:
)وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) (هود:102)
)لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ) (النساء123)

فيتذكر العبد أن الله تعالى شديد العقاب جبار يأخذ من عصاه أخذ عزيز مقتدر.

ومن أسمائه وصفاته وأفعاله ما يوجب الرجاء في ما عنده فهو سبحانه الرحمن الرحيم، وتعرف إلى عباده بذلك، فالمسلم يقول في كل مناسبة: **)بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)** (الفاتحة:1)

وهو الغفور الودود فلا ييئس من رحمة الله تعالى قط:: **)قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)** (الحجر:56)

ومن أسمائه وأفعاله وصفاته ما يوجب محبته كإحسانه إلى خلقه وتعطفه وتحننه إليهم وحلمه وصفحه عنهم وعد معاجلته لهم بالعقوبة، بل هو سبحانه ينزل عليهم من الخير والبر والعطاء في الوقت الذي ترتفع إليه سبحانه منهم المعاصي والذنوب، ولهذا جاء في الحديث القدسي: **(إني والإنس والجن لفي نبأ عجيب، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إليهم نازل وشرهم إلى صاعد).**

فإذا عرف الإنسان ربه بأسمائه وصفاته وأفعاله أجتمع في قلبه:

محبة الله تعالى فلا مكان في قلبه للعشق الحرام.

وخوفه سبحانه فلا مكان في قلبه لخوف غير الله ولا مكان في قلبه للمعاصي الكبار وهو يخاف الله تعالى. وأجتمع في قلبه الرجاء في ما عنده، فلا ينقطع حبل رجائه بربه، فيجتمع الحب والخوف والرجاء، ولهذا قال بعض السلف:

(من عبد الله تعالى بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله تعالى بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبد الله تعالى بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبد الله تعالى بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد).

ليس العجب من الكافر الذي لا يعرف الله تعالى أن يعصيه، بل العجب كل العجب من المؤمن العارف بربه الذي يقرأ في القرآن أسماء الله تعالى وصفاته ويردد صباح مساء :

)هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُون، هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ).

ثم يخالف إلى معصية الله تعالى.

سأل بعضهم لماذا اعتقادنا صحيح وفعلنا بطيء، نعرف الحق ونتركه ونعرف الباطل ونفعله ؟

فأجاب بعض أهل العلم أن ذلك بثلاثة أسباب.

أولها رؤية الهوى العاجل والشهوة الحاضرة.

فإنها تطغى على القلب حتى تشغل الفكر عن التفكير في ما يجنيه الفعل من العواقب الوخيمة.

الثاني التسويف بالتوبة.

ولهذا قال بعض السلف (أنذرتكم سوف) سوف أقوم سوف أعمل سوف أصوم، قال الله تعالى:
(وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) (الحديد: 14)
التمني الأمل، يكبر أبن آدم أو يشب أبن آدم ويشب معه خصلتان حب الدنيا وطول الأمل:
يريد الفتى طول السلامة جاهدا........فكيف يرى طول السلامة يفعل
التسويف، وما حال المسوف إلا كحال إنسان خرج وهو في سن الأربعين من بيته إلى المسجد فوجد في الطريق شجرة فقال أقطعها لأزيلها عن طرق الناس، فحاول فوجدها صعبة فتركها وقال أعود إليها غدا، ونسي هذا الإنسان أنه إذا عاد إليها غدا سيجد أن قوته ضعفت وأن الشجرة زادت قوة ورسوخا وعمقا في التربة.
فهكذا المعصية إذا تركتها اليوم ولم تتب منها الآن وقلت أتوب منها غدا، فأنت غدا إيمانك يضعف والمعصية تترسخ وتتعمق في قلبك ويعز عليك تركها.
السبب الثالث رجاء الرحمة.
فتجد العاصي يقول ربي رحيم وينسى أنه شديد العقاب، وأن عذابه غير مأمون، فإنه سبحانه شرع قطع اليد الشريفة في خمسة قراريط، فما يؤمنك أن يعذبك غدا في الدار الآخرة.
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي.......درج الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدما............منها إلى الدنيا بذنب واحد
المسرف على نفسه ويقول ربي غفور رحيم ينبغي أن يذكر بقول الله تعالى:
)نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ((الحجر:49)
وقول الله عز وجل عن الصادقين الصالحين أنهم كانوا يقولون: **)إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً(**(الانسان:10)
وقولهم: **)قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ(** (الطور:26) يعني خائفين من عذابه وجلين من عقوبته.
وقوله سبحانه: **)وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُون،إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ(** (المعارج:28)
فلمن خلقت النار، ولمن نصب الصراط.
إن من خاف في الدنيا أمن في الآخرة، ومن أمن في الدنيا خشي عليه أن يطول خوفه يوم الحساب. ولهذا جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: **(سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله وذكر منهم؛ ورجل دعته امرأة ذات**

منصب وجمال فقال إني أخاف الله). خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى.
ومن الناس من قد يعرف أسماء الله عز وجل فلو طلبت أن يعدها عليك لعدها ولا ينكر شيئا منها ولكنها لا تؤثر في حياته، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول في ما رواه البخاري عن أبي هريرة: **(إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة).** ولقد جاء عد هذه الأسماء في حديث عند الترمذي وغيره ولكنه ليس بقوي.
فذكر النبي (صلى الله عليه وسلم) أن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة، ليس المقصود من عدها فقط فإن الإنسان قد يحفظ القرآن وقد يحفظ أسماء الله الحسنى ومع ذلك:
(كم قارئ للقرآن والقرآن يلعنه). ولكن المقصود بإحصائها أمر وراء ذلك؛
فمن إحصاء أسماء الله تعالى أن يحفظها ويعرفها.
ومن إحصاء هذه الأسماء أن يعرف معانيها، فلو قلنا له ما معنى القدوس، ما معنى السلام، ما معنى المؤمن، ما معنى المتكبر، ما معنى المهيمن لعرف.
ومن إحصائها أن يؤمن بذلك إيمانا حقيقيا لا تحريف فيه ولا تعطيل ولا تغيير ولا تبديل.
ومن إحصائها أن يتسحظرها في قلبه وخاصة عند الطمع والرغبة أو الرهبة وعند الطاعة أو المعصية، فيستحضرها عند الطاعة فيقبل عليها، ويستحضرها عند المعصية فينكف عنها.
ومن إحصاء أسماء الله عز وجل أن يدعو الله تعالى بها:
فيقول يا رحيم ارحمني، يا غفور أغر لي، يا ستار أستر علي وهكذا.
هذا وينبغي أن لا يدعو إلا بما ثبت من الأسماء فينظر في أسم الستار حين إذ.
هذا واعظ الله عز وجل في قلب أبن آدم؛
فكيف يعصي الله من لله تعالى في قلبه تعظيم؟
وكيف يقصر في طاعته من يعلم أن الله تعالى يسمع ويرى؟
ولهذا قال الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم):
)الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ، وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ) (الشعراء:219)
فإذا تذكر العبد أن الله تعالى يراه: **)وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)** (الطور:48)
إذا تذكر أن الله تعالى يراه في الطاعة صبر عليها.
وعند المعصية أعرض عنها.
وعند الابتلاء صبر طمعا في رضوان الله جل وعلا.
وأنت ترى الإنسان في هذه الدنيا لو كان يعاين أو يعاني أمرا من أمور الدنيا في وظيفة أو عمل ثم وجد أن الرئيس ينظر إليه وهو يتعب في هذا العمل،

يحصل في قلبه فرح وطرب وانتعاش ويحصل في نفسه سعادة أن الرئيس وهو بشر مثله أطلع عليه وهو يعاني أمرا من الأمور.
لو أن موظفا عرضت عليه رشوة فرفضها ثم اطلع رئيسه على هذا الأمر وعلم به لأصابه من السرور والنعيم والحبور شيء كثير. فكيف بالعبد إذا علم أن الله يراه والمعصية تناديه فهو ينكف عنها ويقول إنني أريد ما أريد لله.

ومن الواعظ لله في قلب أبن آدم ذكر الجنة والنار فإنهما المصير والقرار.

قال الله تعالى: **)وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ً)** (الكهف:29)
من شاء آمن ومن شاء كفر ولكن عليه أن يعلم أن هذا الاختيار وهذا القرار له ما بعده، ولهذا أعقب سبحانه بقوله:
(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقا). ثم قال سبحانه:)إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً، أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً((الكهف:31)
نعم إليك الاختيار ولكنه اختيار أنت مسؤول عن عواقبه، وليست المسألة صفقة تجارية غايتها أن تخسر شيئا من المال، ولا المسألة مغامرة ممكن أن تموت فيها.
بل هي الجنة أبدا أو النار أبدا، ربح النفس أو خسارتها، وأي خسارة أعظم من أن يخسر الإنسان نفسه التي بين جنبيه.
) إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (الزمر15)
الذين خسروا أنفسهم.
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: **(أوقد على النار ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى أسودت فهي سوداء مظلمة).** رواه مالك الترمذي وغيرهما.
وعن أبن مسعود رضي الله عنه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال والحديث في مسلم:
(يؤتى بجهنم يوم القيامة تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعين ألف ملك يجرونها).

أي جسم يتحمل هذا العذاب الشديد؟
هذا الجسم الرخو الغض النظيف الذي تحاذر منه النسمة الحارة، الألم البسيط لا طاقة له بمقاساة أهوال النار والسعير.
تقول هذا حديث قد يصح وقد لا يصح، أقول لك هو حديث صحيح، لكن دعك من الحديث، بيننا وبينك القرآن:
)وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ).
تسمع هذه الآية فكأنك تسمع أصوات تظاغيهم في النار.
)إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلا وَأَغْلالاً وَسَعِيراً) (الانسان:4)
وبالمقابل الاختيار الآخر عاقبته الجنة، أدنى منزلة أهل الجنة كما في الصحيح من له الدنيا وعشرة أمثال الدنيا :
(فإن لك الدنيا وعشرة أمثال الدنيا).
)لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) (الدخان:56)
نعيم وحرير وصحاف در ونعيم.......ما تجلى لقلب بشريا أو دنى منه فكر
من الناس من يذكر الجنة ومن يذكر النار، ولكنه يذكرها ليبكي فقط فإذا ذكرت النار بكى وأعول وتعوذ بالله منها، وإذا ذكرت الجنة بكى وسأل الله الجنة.
ولا شك أن هذا وذاك مشروع فإن الله تعالى ذكر النار لنتعوذ منها، وذكر الجنة لنسألها.
كما أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يتعوذ بالله من النار، ولما قال الأعرابي:
(يا رسول إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، ولكني أسال الله الجنة وأعوذ بالله من النار، قال النبي (صلى الله عليه وسلم) حولهما ندندن).
فهو يسأل الله الجنة ويعوذ به من النار، ولكن تأمل في منهج القرآن في ذكر الجنة والنار، تجد أن ذكر الجنة والنار غالبا يكون في سياق الأوامر والنواهي:
فيذكر الأمر ثم يتوعد على تركه.
ويذكر النهي ثم يتوعد على فعله.
يعد المؤمنين ويوعد المخالفين، وينبغي للعبد أن يدرك أن ذكره للجنة والنار ينبغي أن يكون كذلك، فلا معنى لأن تبكي عند ذكر الجنة والنار وأنت تراب.
أو تبكي وأنت تسرق وتظلم وتكذب، فأي شيء في هذا ؟
إذا لم يكن ذكر الجنة والنار واعظا يزعك عن المعصية ويحثك على الطاعة فأي معنى لحقيقة الإيمان في قلبك إذا.
نعم نحن لا نحجر واسعا، فرحمة الله واسعة والأمر كما قليل:

ولا يرهب ابن العم والجار سطوتي......ولا أنثني عن صولة المتهددي
وإني وإن أوعدته أو وعدته............لمنجز إيعادي ومخلف موعدي

فإن الله تعالى قد يعفو عن الذنب، لكن ما الذي أدراك أنك ممن عفى الله تعالى عنهم؟
ما الذي يؤمنك أن تكون ممن أخذهم الله تعالى بذنوبهم ؟
إما لأنك تهاونت بالذنب أو لأنك أصررت عليه أو لأنك كنت بموقع لم يكن منك مقبولا بحال
أو لأنه ليس لديك أعمال صالحة تكافئه ، أو لغير ذلك من الأعمال.
ما الذي يؤمنك أن يختم الله تعالى لك بخاتمة سوء على معصية فعلتها أسررت بها أو أعلنت.

ثالث هذه المواعظ هو ذكر الموت وما بعده من العذاب والنعيم في القبر.

وفي سنن النسائي وغيره يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): **(أكثروا من ذكر هادم اللذات).**
يعني الموت فأنه يقطع اللذات عن الإنسان، والغريب في أمر الموت أن لا أحد ينكره حتى الكفار يصرحون ويقولون :
)قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) (المؤمنون:82)
فهم يتصورون الموت ويصورون أنفسهم في القبور وقد حالوا إلى تراب ولعبت الديدان بأجسادهم ولكنهم مع ذلك يصرون على ما هم عليه.
الغريب في الأمر أن الجميع يؤمنون به ولكن قل من يضعه نصب عينيه، ولهذا قال النبي (صلى الله عليه وسلم) في الحديث الصحيح عن أحمد وأصحاب السنن من حديث علي رضي الله عنه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال:
(لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع وذكر منها الموت؛ ويؤمن بالموت).
والمقصود حين إذ أن يتحول اقتناعك العقلي بأن الموت قادم إليك، يتحول إلى شعور قلبي يدفعك إلى الطاعة ويردعك عن المعصية.
قال بعض أهل العلم: (أي عيش يطيب وليس للموت طبيب).
وقال أبن مسعود رضي الله عنه: (كفى بالموت واعظا، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شغلا).
وقال الحسن البصري: (ما رأيت يقينا أشبه بالشك من يقين الناس بالموت على غفلتهم عنه، ولا رأيت صدقا أشبه بالكذب من حب الناس الجنة مع تركهم العمل).

كان عمر أبن عبد العزيز رحمه الله أميرا مرفها حسن البزة حسن الثياب، فلما ولي الخلافة وكان ذا نفس طموحة طمح إلى الجنة، فجعل الدنيا تحت قدميه وأقبل على الآخرة، فكان يكثر من ذكر الموت، فإذا نظر إلى جسمه قال: (كيف لو رأيته بعد ثلاث حينما يوسد في قبره).

فعرف الناس منه ذلك، فلما كان يجول في الأمصار حضر بعض الشعراء، وكان من عادة الشعراء إذا وقفوا أمام الأمراء أن يشتغلوا بالمديح والثناء والقيل والقال، ولكن عمر رضي الله عنه أنشئ مدرسة لشعراء تهتم بذكر الموت والآخرة، فوقف أمامه أحدهم يقول:

وبينما المرء أمسى ناعما جذلا.........في أهله معجبا ذا أنقي

غرا أتيح له من حينه عرض............فما تلبث حتى مات كالصعق

ثمة أضحى ضحا من غب ثالثة.........مقنعا غير ذي روح ولا رمق

يبكي عليه وأدنوه لمظلمة..............تغشى جوانبها بالترب والفلق

فما تزود من ما كان يجمعه...........إلا حنوطا وما واراه من خرق

وغير نفحة أعواد تشب له............وقل ذلك من زاد لمنطلق

فبكى عمر رضي الله عنه حتى بلل لحيته.

ومما يذكر بالموت مشاهدة المحتضرين، فأنت حين ترى الإنسان وهو يحتضر فتتجمد أطرافه وتشخص عيناه، وتجمد حركته فإنك ترى أمرا رعيبا.

وكان عمرو أبن العاص رحمه الله ورضي الله عنه وهذا الأثر عند الحاكم وهو صحيح يقول:

(وددت أن بعض المحتضرين يخبروننا خبر الموت وكيف يكون.

فلما حضره الموت قال له أبنه عبد الله يا أبتي إنك كنت وأنت صحيح شحيح تقول وددت أن بعض المحتضرين يخبروننا خبر الموت، فها أنت الآن محتضر فهلا أخبرتنا فقال له:

يا بني إن أمر الموت أعظم من أن يوصف، ولكني سأقربه لك، أحس كأن جبل رضوى على عنقي، (شيء ثقيل)، وأحس أن جوفي يشاك بالسلاح تختلف فيه الرماح والسيوف، وأحس أن روحي تخرج من ثقب إبرة، ثم أقبل على الجدار يبكي).

وهذا القدر الذي سأسوقه في صحيح مسلم:

(فقال له أبنه عبد الله يا أبتي ما يبكيك؟ أما بشرك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بكذا، أما بشرك بكذا، فما زال به حتى أقبل عليه وقال: إني كنت على أطباق ثلاث، كنت وأنا في الجاهلية لا أحد عندي أبغض من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلو استمكنت منه حين إذ لقتلته ولو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار.

ثم وضع الله الإسلام في قلبي فأتيت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقلت أبسط يدك أبايعك، فبسط يده، قال فقبضت يدي، فقال يا عمرو بايع. قلت يا رسول الله أريد أن أشترط، قال تشترط ماذا ؟، قلت أشترط أن يغفر لي، قال بايع أما علمت أن الإسلام يجب ما قبله وأن الحج يهدم ما قبله، قال فبسطت يدي فبايعته فقذف الله حبه في قلبي حتى إني كنت لا أستطيع أن أملى عيني منه إجلال له (صلى الله عليه وسلم)، فلو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة.

ثم ولينا أشياء لا أدري ما حالي فيها، فإذا أنا مت فلا تصحبوني بنائحة، فإذا وضعتموني في قبري فانتظروا عند قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي).

ومما يذكر بالموت زيارة القبور، وفي الصحيح:

(كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها فإنها تذكر بالآخرة).

أتيت القبور فناديتها......أين المعظم والمحتقر

وأين المذل بسلطانه......وأين العظيم إذا ما افتخر

تفانوا جميع فما مخبر.....وماتوا جميعا واصحوا عبر

هذه القبور وإن كانت ساكنة إلا أنها ناطقة، تقول في داخلي الأكابر والعظماء والملوك والزعماء والعلماء والتجار والفجار كلهم سواء، قبور مسنمة لكن داخلها يختلف، فهذا روضة من رياض الجنة وذاك حفرة من حفر النار، ولا أنيس فيه إلا العمل الصالح.

وينبغي في موضوع ذكر الموتى أن يفطن الإنسان لأمور:

أولها أن مجرد ذكر الموت لا يكفي، بل ينبغي أن يكون ذكره واعظا يدفعك إلى العمل الصالح.

ثانيا الزيادة في ذكر الموت والمبالغة في ذلك حتى يقعد الإنسان عن العمل لا ينبغي، بل يكون الإنسان في ذلك معتدلا، ويكون ذكره للموت لمناسبات، أي يربط ذكر الموت بأمور الدين والشريعة، فيذكر الناس بالموت ثم يحثهم على عمل الصالحات، أو يذكرهم بالموت ثم ينهاهم عن المعاصي والموبقات، أما مجرد النياحة على النفس والبكاء على الذات والصياح على ما سوف يصيبه وكثرت توصيف أحوال المحتضرين مثلا، وتوصيف أحوال الموتى وما يصيبهم في القبور وما تكون إليه هذه الأجساد بعد البلى وبعد أن تلعب بها الديدان إلى غير ذلك، فهذا وحده لا يكفي، ليس كافيا لأن هذا القدر مشترك.

مما يحكى أن رجلا من التجار أصابته قرحة في جسده حتى كدرت عليه عيشه فبحث عن أطباء فلم يجد، فذكر له طبيب في الهند، فذهب إليه فوجد هذا الطبيب نحيفا منجعفا على سريره.

فقال أنت الطبيب؟ قال نعم ما بك؟

قال بي هذه القرحة التي آذتني وأسهرتني وشوهت صورتي فأريد أن تعالجها.

قال بماذا ؟ قال بما شئت.

قال بنصف مالك، قال نعم.
فأعطاه نصف ماله على أن يعالج هذه القرحة، فما زال هذا الطبيب به يعالجه حتى شفيت هذه القرحة، فذهب التاجر ينظر وجهه في المرآة فوجد القرحة قد زالت ولكن بقي أثرها سوادا يشوه صورته، فرجع إلى الطبيب وقال لا زال السواد باقيا.
فقال ما على هذا قاولتك، ولكن قاولتك على أن يزول الألم، وقد زال بالكلية.
فما زال يكلمه حتى اتفق معه على أن يزيل أثر القرحة بالنصف الثاني من ماله، فعالجه الطبيب حتى زال أثر هذه القرحة، فلم يبقى معه مال.
ثم قال له الطبيب إنني لم أرد مالك، فأنا أزهد الناس به وأغنى الناس عنه، وها أنت تراني ما براني وأضعف جسدي إلا كثرة التأمل والتفكير في أمر هذه الدنيا وأمر ما بها، ولكنني أردت أن أعرف قدر نفسك عندك، وقدر مالك، فقد عرفت أن نفسك أغلى عليك من مالك.
قال فمن أي دين أنت؟ قال من دين الإسلام.
قال وما دين الإسلام؟ فذكر له الإسلام وأن المؤمنين والمسلمين يؤمنون بالدار الآخرة والبعث بعد الموت إلى غير ذلك، فتعجب هذا الطبيب منه وقال: إنني وأنا رجل لا أؤمن بهذا أعجب ممن يبالغون في جمع الأموال ويقبلون على الدنيا ويجعلونها
مرادهم وهمه، فكيف وأنت تؤمن بالدار الآخرة غير هذه الدنيا تشتغل بمثل ذلك.
فرجع الرجل متعظا مزدجرا. (ذكر هذه القصة الحميد).
المقصود أن الإيمان بالموت وتذكر ما يصيب الميت هذا أمر مشترك بين جميع أمم الدنيا، ولا يكفي، بل بالنسبة للمسلم ينبغي أن يربطه بأمر الدين والتوحيد والدعوة إلى الله عز وجل، والجهاد في سبيله فيكون الموت مثلا سببا في إقباله على الجهاد، وقتاله للكفار ولا يخاف لأنه يرى أن الموت آت لا محالة وأن بعد الموت بعثا.
ولهذا قال بعض السلف:
(إن الله تعالى لم يخلق الخلق للفناء، وإنما خلقهم للبقاء وإنما هم ينتقلون من دار الضيق إلى دار السعة).
يجب أن يكون ذكر الموت سببا للإنجاز لا سببا للقعود، لا معنى أن يقول الإنسان أن الموت آت ولهذا أقعد عن طلب الرزق. لا بل أطلب الرزق وتاجر وإذا اغتنيت وأكثر الله أموالك فأنفقها في سبيل الله.
ولا معنى أن يقعد الإنسان عن طلب العلم ويقول الموت آت.
أطلب العلم وتعلم وعلم وأعمل حتى تدعى كبير في ملكوت السماوات.
أما مجرد النياحة على النفس فهذا لا ينفع.
أذكر بقية المواعظ بإيجاز.

الرابع من المواعظ موعظة القرآن.

وهو كلام الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد..

)فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) (المرسلات:50)

)تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ) (الجاثـية:6)

والعجب من أمر الناس أن الواحد ربما سمع كلام واعظ أو داع أو قارئ أو منشد فأنهلت دموعه.

وربما يسمع كلام الله عز وجل فلا يحرك منه ساكنا.

وربما يسمع أبيات من الشعر فتعجبه فيتحفظها ويطلب إعادتها ويسمع القرآن فلا يهتز له وجدان.

قال هارون الرشيد لأبن السماك وهو زاهد واعظ مشهور، قال عظني، قال: كفى بالقرآن واعظا، والله تعالى يقول: **)أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)** (الفجر:9)

فوعظه بموعظة قرآنية تناسب ما هو عليه لأنه كان خليفة فذكره بأحوال أهل التمكين والرياسة من قبله وكيف صارت أمورهم إلى ما صرت إليه.

ولهذا فالقرآن موعظة للجميع وموعظة للملوك بأحوال ما كان عليه الملوك من قبل، وما آلوا وصاروا إليه، وموعظة للسوقة، وموعظة للعلماء والجهال، وموعظة للأغنياء والفقراء، وموعظة للمفرطين والمفرّطين، وموعظة للجميع، وموعظة للرجال والنساء.

فهو جمّاع الخير وأسه وأوله، وعلى طالب الهدى أن يقبل على القرآن الكريم فهو حبل الله الممدود الذي من تمسك به نجى ووصل ومن تركه وانقطع.

يسأل كثيرون يقولون ما علاج صلاح قلوبنا؟ نسمع المواعظ.

يبدو أن أعظم هدية يمكن أن تقدم لهم أن يقال اجعلوا للقرآن حظا من أوقاتكم بمفردكم، وأقبلوا على القرآن، ورددوا آياته وأبكوا فإن لم تبكوا فتباكوا.

الموعظة الخامسة الحوادث.

وما جبلت هذه الدنيا من التقلب والتغير سواء للأفراد أو للأمم أو الجماعات من الأحياء أو من الأموات، والسعيد فيها من وعظ بغيره والشقي من وعظ به غيره، الشقي من شقي في بطن أمه.

حكم المنية في البرية جار..................ما هذه الدنيا بدار قرار
بينا يرى الإنسان فيها مخبرا...............حتى يرى خبرا من الأخبار
جبلت على كدر وأنت تريدها...........صفوا من الأقذار والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها...............متطلب في الماء جذوة نار
وإذا رجوت المستحيل فإنما...............تبني الرجاء على شفير هار
فاقضوا مآربكم عجالى إنما...............أعماركم سفر من الأسفار
وتراكضوا خيل الشباب وبادروا...........أن تسترد فإنهن عوار
وكما قيل قد نادت الدنيا على الناس بأعلى صوتها وهي تقول:
هي الدنيا تقول بملئي فيها.........حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي
ولا يغرركمو مني ابتسامي.........فقولي مضحك والفعل مبكي
هل تنتظر أن تنزل بك المصيبة لتعتذر؟
في أي قرن أنت ومن أي جيل، الأرض التي وطئتها ماذا تقول لك ؟
لو سمعتها لوجدتها تقول:
يا صح هاذي قبورنا تملئ الرحب..........فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطئ ما أظن أديم...............الأرض إلا من هذه الأجساد
رب قبر صار قبرا مرار..................ضاحكا من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين...................في خفايا الأحقاب والآماد
هؤلاء الأغنياء افتقروا، الشرفاء إتضعوا، الملوك ماتوا أو قتلوا أو طردوا.
أين فرعون أين هامان أين قارون أين النمرود أين أبو جهل أين ماركس، أين لينين أين تيتو أين جمال عبد الناص أين السادات أين بوضياف أين فلان وأين فلان؟
طحنتهم الدنيا فأصبحوا كأن لم يكونوا.

من المواعظ آيات الله في الكون وفي النفس.
)سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) (فصلت:53)
(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)(الأعراف185) .
وف الصحيح أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قام في آخر الليل إلى شن معلق فتوضاء ثم قرأ قول الله تعالى:
)إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) .
وفي بعض الروايات أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: **(ويل لمن قرأها ولم يتفكر).**

وفي هذا العصر تفتق العلم عن إنجازات وكشوفات عظيمة حيث ارتاد آفاق الكون والنفس
وأصبح بمقدور الإنسان أن يعرف الكثيرَ الكثيرَ من بديع صنع الله عز وجل، فليستفد الإنسان من هذا ويعتبر به ليكون سببا واصلا إلى الله عز وجل، ليس في الإيمان بوجوده فحسب بل بالإيمان بوجوده وفي معرفته بأفعاله جل وعلا، وفي تعظيمه وفي التقرب إليه بالطاعات.
أترك ما بقي من الموضوع لضيق الوقت وأجيب على بعض الأسئلة.
هذا وأسأل الله تعالى أن يرزقني وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعل ما أعطانا قربة وزلفى إليه إنه على كل شيء قدير.
اللهم أعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنا وأعنا ولا تعن علينا، وأنصرنا على من بغى علينا.
اللهم أصلح سرنا وعلانيتنا وظاهرنا وباطننا.
اللهم أصلح فساد قلوبنا، اللهم أصلح فساد قلوبنا.
اللهم استعملنا في ما يرضيك، الله استعملنا في ما يرضيك.
اللهم جنبنا بفضلك يا حي يا قيوم يا رحمن يا رحيم جنبنا مساخطك ومعاصيك.
اللهم اجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين.
اللهم أجعل ما علمتنا حجة لنا لا حجة علينا.
اللهم أحي قلوبنا بذكرك وشكرك وطاعتك.
اللهم خذ بأيدينا إلى ما يرضيك.
اللهم أجمع شتات قلوبنا، اللهم وحد على الخير صفوفنا.
اللهم أبرم للمؤمنين أمرا يعز به من أطاعك حتى لا يكون أحد أعز منه، وبذل به من عصاك حتى لا يكون أحد أذل منه.
اللهم الحظ بعين رعايتك وعنايتك وعطفك ولطفك إخواننل المستضعفين في كل مكان.
اللهم أنزل عليهم من سكينتك ونصرك يا حي يا قيوم ما تأمنهم به من خوف، وتشبعهم به من جوع وتكسوهم به من عري.
اللهم أنزل على عدوهم بأسك الذي لا يرد عن القوم المجرمين.
اللهم إنا ندعوك ونحن نعلم أننا لا نستحق الإجابة، لكنن نعلم أيضا أنك أنت مجيب الدعوات
وقاضي الحاجات، تجيب دعاء المضطرين حتى وإن كانوا بالإجابة غير جديرين.
فيا قيوم السماوات والأرضِ لا ترد دعائنا ولا تخيب رجائنا إنك على كل شيء قدير.
يا حي يا قيوم هذا الدعاء ومنك الإجابة.
....

سؤال:
قلت أن الطاووس أحسن من الإنسان خلقا وقد قال الله تعالى :
)لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ).
جواب:
نعم الإنسان خلقه الله في أحسن تقويم من حيث الظاهر والباطن، ولكن ليست زينة الإنسان في شكله كما أسلفت، وإنما الإنسان كرم بإنسانيته، كما قال الله تعالى :
)وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً).
فالله خلق أدم وأسجد له الملائكة : **)وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ).** مع أن آدم خلق من الطين والملائكة خلقوا من النور، ومع ذلك أسجدهم الله تعالى لآدم لأن الله تعالى نفخ فيه هذه الروح: **)فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ).**
فليست ميزة الإنسان في جسمه، ولهذا ليس الإنسان الجميل حسن الصورة الطويل العريض ليس بالضرورة أنه أفضل من ذلك الإنسان القصير القليل، وأبن مسعود كان صغيرا قليلا حتى إن الريح تحركت به يوما من الأيام فأهتز فضحك بعض الصحابة، فقال (صلى الله عليه وسلم):
(إنهما أثقل في الميزان من كذا وكذا أو من جبل أحد) أو كما قال (صلى الله عليه وسلم). والحديث صحيح. فليس مقياس الإنسان في طوله ولا بعرضه ولا بحسنه ولا بماله ولا ببزته ولا بهندامه ولا بتقاسيمه ولكن قيمة الإنسان بعقله وقلبه، قيمة الإنسان بدينه بعلمه بأيمانه بتقواه بورعه بخوفه من الله عز وجل.

تم بحمد الله.

....

للتواصل أخوكم البوراق / anaheho@maktoob.com